



إنَّ مِنْ أَشْهَرِ عَمَليَاتِ التَّفَاوُضِ فِي التَّارِيخِ: عَمَليَةُ التَّفَاوُضِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ قُرَيْشَ - وَلَمَّا يُسْلِمُوا بَعْدَ - وَبَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا عُرِفَ بِ(صَلْحِ الْحَدِيبِيَّةِ)، وَفِي صَلْحِ الْحَدِيبِيَّةِ مَجْمُوعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ دُرُوسِ وَأَسُُسِ التَّفَاوُضِ الَّتِي تَمَّ تَطْبِيقُهَا عَمَلِيًّا، وَيُشَارُ هُنَّا إِلَى نَقْطَةِ مَهْمَةٍ؛ وَهِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُفَاوضُ فَرِيقَيْنِ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، وَالْفَرِيقَيْنِ هُمَا: الْمُشْرِكُونَ مِنْ جِهَةِ، وَبَعْضُ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى.

فَحِينَ رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَؤْيَاَهُ الشَّهِيرَةَ؛ أَنَّهُ وَأَصْحَابَهُ سَيَدْخُلُونَ الْمَسْجَدَ الْحَرَامَ (الْكَعْبَةَ) إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ مُحَلِّقِينَ رَؤُوسَهُمْ وَمَقْصِرِينَ لَا يَخافُونَ؛ أَيْ: إِنَّهُمْ سَيَؤْدُونَ مَنَاسِكَ الْعُمْرَةِ، وَذَلِكَ فِي غَيْرِ تَحْدِيدٍ لِلزَّمَانِ، وَلَا تَعْبِينَ لِلشَّهْرِ وَالْعَامِ، فَأَخَبَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ، فَاسْتَشَرُوا بِهِ خَيْرًا، وَزَادَ شَوْقُهُمْ لِزِيَارَةِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَاعْتَدُوا أَنَّ هَذِهِ الرَّؤْيَا سَتَتَحْقَقُ فِي نَفْسِ الْعَامِ، فَعَقَدُوا النِّيَّةَ وَأَعْدَادُ الْعُدُّةِ لِلصَّفَرِ، وَقَرَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّفَرَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ، وَهُوَ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحُرُمَّةِ؛ حَتَّى لَا تَتَوَجَّسَ قُرَيْشٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خِيفَةً؛ لِأَنَّ الْعُرْفَ عِنْ الدُّرُّبِ أَنَّ لَا يَكُونُ قَتَالٌ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمَّةِ؛ وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ: ذُو الْقَعْدَةِ، ذُو الْحِجَّةِ، ذُو الْحُرُمَّةِ، رَجَبٌ.

فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاتِّجَاهِ مَكَةَ مَعْتَمِرًا لَا يُرِيدُ حَرَيًّا، وَكَانَ عَدْ الصَّاحِبَةِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةَ رَجُلٍ، خَرَجُوا فِي ثِيَابِ الْإِحْرَامِ الْبَيْضَاءِ، وَسَاقُوا مَعَهُمُ الْهَدْيَ (الْبَهَائِمُ الَّتِي تُذَبَّحُ)، وَأَحْرَمُوا بِالْعُمْرَةِ؛ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُمْ جَاءُوا زَائِرِينَ لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ مَعْظِمِينَ لَهُ، وَهَنَّا كَيْفَيَّةُ تَفَوُضِ قُرَيْشٍ فِي صِدِّهِمْ عَنِ الْكَعْبَةِ الْمَسْرُفَةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ عُزْلًا مِنَ السَّلَاحِ إِلَّا مَا يَحْمِلُهُ كُلُّ مَسَافِرٍ وَهُوَ سِيفٌ لِلِّدَافَعِ عَنْ نَفْسِهِ، وَرَكِبَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاقَتَهُ الْقَصْوَاءُ، وَسَارَ، وَأَصْحَابُهُ خَلْفَهُ.

مَا إِنْ سَمِعَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَقْصِدُونَ مَكَةَ حَتَّى أَخَذَتْ وَبِشَكْلٍ مُبَاشِرٍ فِي جَهُودِ الْاِسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ، وَلَمْ يَصِدِّقُوا أَنَّ هَدْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَدَاءُ الْعُمْرَةِ، وَعَقَدُوا النِّيَّةَ الْمُسْبِقَةَ عَلَى صَدِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ عَنِ مَكَةَ، مَهْمَا كَلَّفُهُمُ الْأَمْرُ، وَهَكُنَا كَانَ هَذِهِ الْمُوقَفَ مِنْ قُرَيْشٍ دَلِيلًا عَلَى عَنَادِهِمْ وَصَلْفِهِمْ، وَتَمَادِيَهُمْ فِي الْاعْتِدَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَمَصَادِرَةِ حَرِيَاتِهِمْ، وَمَنْعِهِمْ مِنْ أَبْسِطِ حَقَوْقِهِمْ.

ثُمَّ إِنْ قُرَيْشًا بَدَأَتْ مُبَاشِرَةً بِاسْتِفْزَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ؛ لِجَرِّهِمْ إِلَى طَرِيقِ الْمَوْاجِهَةِ وَالْحَرْبِ، وَبَلَغَ

ال المسلمين أن خالد بن الوليد خرج في خيلٍ لقريش بلغت مائتي فارس؛ يُريد النبي وأصحابه، ولكي يتَجَنَّبُ الرسولُ محمدُ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاصطدامَ بقريش، وتَماشِيًّا مع رغبة الرسول صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السلم والتفاوض والابتعاد عن مبدأ المواجهة - أمام هذا الموقف طَلَبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحد أصحابه أن يَخْرُجَ بِهِمْ فِي طَرِيقٍ غَيْرَ طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا، فَسَأَلَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَسْلَمَ طَرِيقًا وَعَرَّا غَيْرَ الطَّرِيقِ الْمَعْهُودَ، حَتَّىٰ وَصَلَوَا إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى طَرَفِ حَدُودِ أَرَاضِيِّ مَكَّةَ.

ويُلَاحِظُ هُنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْتَدَأَ عَنْ أَسْلَوْبِ الْمَوَاجِهَةِ؛ لَأَنَّ لَدِيهِ أَهْدَافًا أُخْرَىٰ رَغْمَ مَا قَدِمَ مِنْ تَكَالِيفَ إِضَافِيَّةٍ، فَمَنْعَ مِنْهُ الْفَرَصَةَ لِلْطَّرَفِ الْآخَرِ لِجَرِهِ لِأَسْلَوْبِ الْمَوَاجِهَةِ.

وَمَا إِنْ اسْتَقَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ حَتَّىٰ بَدَأَتِ الْمَفَاقِدُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَخْصًا أَوْ وَفَدًا لِلْمَفَاقِدِ قَرِيشًا، وَانتَظَرَ أَنْ تَبَعَّثَ قَرِيشٌ رَسُولَهُ، وَهُوَ شَيْءٌ مُسْتَحْسَنٌ فِي عَمَلِيَّاتِ الْمَفَاقِدِ؛ أَنْ تَسْتَمِعَ فِي الْبَدَأَةِ لِلْطَّرَفِ الْآخَرِ وَتَرَىٰ مَا بَجَعَتِهِ، قَبْلَ أَنْ تُدْلِيَ أَنْتَ بِدَلَوكَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ جَاءَ مِنْ قَرِيشٍ لِلْمَفَاقِدِ رَجُلٌ يُدْعَى (بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيِّ) وَمَعْهُ نَفْرٌ مِنْ حُزَاعَةِ، وَهُمْ يُمَثِّلُونَ الْوَفَدَ الْأَوَّلَ وَفَرِيقَ الْمَفَاقِدِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَئِيسَ الْوَفَدِ وَهُوَ (بُدَيْلُ) قَالَ عَنْهُ: ((إِنَّهُ رَجُلٌ عَاقِلٌ))؛ فَلَذِكَ فَقَدْ كَلَمَهُ بِمَنْطَقِ الْعُقْلِ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدَ حَرَبًا، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَمُعْظَلًا لِحُرْمَتِهِ، وَأَمَّا عَرْضُ الْمَنْطَقِيِّ وَالْعَقْلَانِيِّ فَقَنِعَ الْوَفَدُ الْمَفَاقِدُ بِأَحْقَيِّهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ فِي زِيَارَةِ بَيْتِ اللهِ وَتَعْظِيمِهِ، فَرَجَعُوا إِلَى قَرِيشٍ فَقَالُوا: يَا مَعْشِرَ قَرِيشٍ، إِنَّكُمْ تَعَجَّلُونَ عَلَىِّ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا هَذَا الْبَيْتِ. وَلَكِنَّ قَرِيشًا رَفَضَتِ الْإِسْتِمَاعَ إِلَى رَجُلِهَا وَمُفَاقِدِهَا الْعَاقِلِ.

ثُمَّ أَرْسَلَتْ قَرِيشٌ رَجُلًا آخَرَ فَعَادَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِ قَنَاعَاتِ بُدَيْلٍ بْنِ وَرْقَاءَ، ثُمَّ أَرْسَلَتْ قَرِيشٌ مُفَاقِدًا آخَرَ هُوَ "مِكْرُزُ بْنُ حَفْصٍ"، فَقَالَ النَّبِيُّ حِينَ رَأَهُ: ((هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ))، وَفِي ذَلِكَ دَلَلَةٌ وَاضْحَىَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِفُ خُصُومَهُ جَيْدًا؛ فَقَدْ جَمَعَ عَنْهُمُ الْمَعْلُومَاتِ كَامِلَةً وَلَدِيَّهُ تَصُورٌ وَاضْحَىَ لِشَخْصِيَّاتِهِمْ، فَبَلَّغَهُ بِنَفْسِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي قَالَهَا لِلَّذِي قَبْلَهُ.

ثُمَّ جَاءَ دَوْرُ مُفَاقِدِ آخَرَ هُوَ (الْحُلَيْسُ بْنُ عَلْقَمَةَ) وَكَانَ يَوْمَنِ سَيِّدِ الْأَحَابِيَّشِ، فَلَمَّا رَأَاهُ الرَّسُولُ قَالَ: ((إِنَّهُمْ يَتَأَلَّهُونَ))؛ أَيِّ: مِنْ قَوْمٍ تَعْنِيهِمُ الْعِبَادَةُ، فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَبْعَثُوا الْهَدِيَّ فِي وِجْهِهِ حَتَّىٰ يَرَاهُ (أَيِّ: خَاطَبَهُ بِمَا يَفْهَمُ)، (وَالْهَدِيُّ هِيَ الْبَهَائِمُ الَّتِي يَسْوَقُهَا الْحَجِّيْجُ لِذَبْحِهَا لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى)، فَلَمَّا رَأَى (سَيِّدُ الْأَحَابِيَّشِ) الْهَدِيَّ يَسْيِلُ عَلَيْهِ مِنْ عُرْضِ الْوَادِيِّ (جَانِبِهِ)، رَجَعَ إِلَى قَرِيشٍ دُونَ أَنْ يَصِلَّ إِلَى الرَّسُولِ؛ إِعْظَامًا لِمَا رَأَى، (وَهُنَا يَكْسِبُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجُولَةَ مِنْ غَيْرِ تَفَاوْضٍ).

ثُمَّ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا رَابِعًا هُوَ "عُرُوْةُ بْنُ مَسْعُودَ الثَّقَفِيِّ" سَيِّدُ أَهْلِ الطَّائِفِ، فَكَلَمَهُ الرَّسُولُ بِنَحْوِ مَا كَلَمَ بِهِ أَصْحَابَهُ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدَ حَرَبًا، وَإِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَزُورَ الْبَيْتَ كَمَا يَزُورُهُ غَيْرُهُ فَلَا يَلْقَى صَادَارًا وَلَا رَادًا.

وَيُلَاحِظُ هُنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُذَكِّرْهُ بِمَا فَعَلَوْهُ يَوْمَ جَاءَ إِلَيْهِمْ فِي الطَّائِفِ يَأْمُلُ دُعَمَهُمْ فَأَغْرَىَهُمْ بِهِ غِلْمَانَهُمْ وَضَرَبُوهُ حَتَّىٰ أَدْمَوْهُ؛ لَأَنَّ الْمَوْضِعَ صَارَ مِنَ الْمَاضِيِّ، وَإِثَارَتِهِ قَدْ تَجَرَّ إِلَى نَتَائِجَ سَلْبِيَّةٍ.

وَانْتَبِهَ هُنَا عَرُوْةُ إِلَى أَمْوَالِهِ كَانَتْ تَحَدُّثُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَامَ مِنْ عَنْدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابُهُ؛ لَا يَتَوَضَّأُ إِلَّا يَبْتَدَرُوا وَضُوَءَهُ، وَلَا يَسْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ شَيْءٌ إِلَّا أَخْذَوْهُ! فَرَجَعَ إِلَى قَرِيشٍ فَقَالَ لَهُمْ: "أَيُّ قَوْمٍ، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ؛ عَلَى قِيَصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مَلَكًا يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ

كما يعظم أصحابُ محمدَ مُحَمَّداً... إلى أن قال: "إِذَا أَمَرْهُمْ أَبْتَدَرُوا أَمْرَهُ، إِذَا تَوَضَّأُ كَادُوا يَقْتَلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، إِذَا تَكَلَّمُ حَفَضُوا أَصْوَاتِهِمْ عَنْهُ، وَمَا يُحْدُثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرُ؛ تَعْظِيمًا لَهُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبْدًا".

وبعد انتهاء هذه المرحلة من التفاوض لاحظَ النبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الطرف الآخر قد بعثَ العديدَ من المفاوضين، وقد أصبحَت الصورةُ الآن أكثرَ وضوحاً للطرفين، وقد آنَ الأوانَ لِيَبْعَثَ هُوَ بِمُفَاضَلَةِ خِرَاشَ بْنَ أُمِّيَّةَ الْخَزَاعِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُفَاضَلَةً، يَوْضِعُ مَوْقِفَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السِّلْمِيَّ، وَيُؤكِّدُ مِبْدَأَ الْحَلِّ الَّذِي بَلَغَ غَايَتِهِ، وَلِيَعْرِفَ أَخْبَارَ الْطَّرَفِ الْآخَرِ، وَأَيْنَ وَصَلَّ بِهِمِ الْحَالُ، فَبَعَثَهُ إِلَى قَرِيشٍ بِمَكَّةَ، وَحَمَلَهُ عَلَى نَاقَتِهِ الْخَاصَّةِ، وَكَانَتْ تُعْرَفُ بِالْقَصْوَاءِ، (وَفِي ذَلِكَ دَلَلَةٌ تَفَاؤْسِيَّةٌ خَاصَّةٌ): لِيَبْلُغَ أَشْرَافَ مَكَّةَ مَا أَمْرَهُ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنَّ الْطَّرَفَ الْآخَرَ لَمْ يَفْهَمْ الرِّسَالَةَ جَيْدًا، وَأَرَادُوا قَتْلَ خِرَاشَ بْنَ أُمِّيَّةَ، وَهِيَ مَحَاوِلَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْهُمْ لِسَبْحَ المُفَاضَلَاتِ إِلَى نَقْطَةِ الْمَوَاجِهَةِ.

ولم يكتفُوا بذلك؛ بل أَرْسَلُوا أَرْبِيعَينَ أَوْ خَمْسِينَ رِجَالًا، وَأَمْرَوْهُمْ أَنْ يَدْوِرُوا بِجَمْعِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِيُصَبِّبُوَا لَهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا، فَأَمْسَكَ الْمُسْلِمُونَ بِهِمْ جَمِيعًا، وَأَتَيَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَفَّا عَنْهُمْ وَخَلَّ سَبِيلَهُمْ، (وَهَذِهِ نَقْطَةٌ أُخْرَى مُهِمَّةٌ فِي عَمَلِيَّةِ التَّفَاؤُلِ؛ بِتَقْدِيمِ مَا يُثْبِتُ صَحَّةَ قَوْلِ الْمُفَاضَلَاتِ، وَثَبَاتِهِ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ)، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ النبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِذَلِكَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَكْبَحَ جِمَاحَ الْطَّرَفِ الْآخَرِ وَرَغْبَتِهِ الْعَارِمَةِ فِي الْمَوَاجِهَةِ.

وَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَجْرِيَ الْأَمْرُورُ نَحْوَ الْمَوَاجِهَةِ وَأَنْ يَتَصَاعِدُ الْمَوْقِفُ نَحْوَ الْقَتَالِ مَرَّةً أُخْرَى، فَدَعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لِيَبْعَثَهُ إِلَى مَكَّةَ، فَيُبَلُّغَ عَنْهُ أَشْرَافَ قَرِيشٍ مَا جَاءَ لَهُ، وَقَدْ اخْتَارَ النبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِسَبِيلٍ مَكَانِيَّةٍ عُمَرَ الرَّفِيعَةَ وَقُرْبِهِ مِنَ النبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَكَرَهُ وَقَوَّتَهُ، وَوَقَوَفَهُ مَعَ الْحَقِّ دُونَ أَنْ تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لِأَئْمَمِهِ، وَهِيَ مَوَاصِفَاتٌ تَفَاؤْسِيَّةٌ فَرِيدَةٌ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَخَافُ قَرِيشًا عَلَى نَفْسِي، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ مِنْ عَدَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَحَدٌ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفْتُ قَرِيشًا عُدُوَانِي إِيَّاهَا وَغِلَظَتِي عَلَيْهَا، وَلَكِنَّ أَدْلُكَ عَلَى رَجُلٍ أَعَزُّ بِهَا مِنِّي؛ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَهُنَا التَّفَاتَةُ كَبِيرَةٌ مِنْ سَيِّدِنَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صُلُبِ الْعَمَلِيَّةِ التَّفَاؤْسِيَّةِ؛ لِأَنَّ التَّفَاؤُلَ سَيَنْتَقِلُ إِلَيْهِ الْأَوَّلِ.

فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَبَعَثَهُ إِلَى أَبِي سَفِيَّانَ بْنَ حَرْبٍ (قَبْلِ إِسْلَامِهِ) وَإِلَى أَشْرَافَ قَرِيشٍ؛ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِبَيْتِ مَعْظِمًا لِحَرْمَتِهِ، فَانْطَلَقَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى أَتَى أَبَا سَفِيَّانَ وَعُظَمَاءَ قَرِيشٍ، فَبَلَّغُهُمْ عَنِ الرَّسُولِ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ، فَقَالُوا لِعُثْمَانَ حِينَ فَرَغَ مِنْ رِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ شَئْتَ أَنْ تَطْوِفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ، (وَهُنَا يَأْفِتُ النَّظَرَ مَحَاوِلَةُ الْخَصْمِ لِتَقْدِيمِ أَشْبَهَ بِالرَّشْوَةِ، أَوْ تَحْقِيقِ مَصْلَحَةِ شَخْصِيَّةِ الْفَرْدِ دُونَ فَرِيقِ الْعَمَلِ)، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لَأَفْعُلُ حَتَّى يَطْوِفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ عُثْمَانَ حِينَ رَجَعَ وَقَالَ لِهِ الْمُسْلِمُونَ: أَشْتَفَيْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مِنِ الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ؟ فَقَالَ لَهُمْ: بَئْسَ مَا ظَنَّنْتُمْ بِي! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ مَكَثْتُ بِهَا سَنَةً وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقِيمٌ بِالْحَدِيبَيَّةِ مَا طُفْتُ بِهَا حَتَّى يَطْوِفَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! (وَهَذِهِ الْأَمْرُ فِي غَايَةِ الْأَهْمَى؛ فَوَلَاءُ الْمُفَاضَلَاتِ يَكُونُ لِلْقَضَيَّةِ وَلِلْفَرِيقِ، وَلَيْسَ لِمَصَالِحِ شَخْصِيَّةِ).

ثُمَّ بَعَثَتْ قَرِيشٌ بِسْهَلِ بْنِ عَمْرُو، وَعَقَدَ صَلْحَ الْحَدِيبَيَّةَ مَعَ النبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا بن أبي طالب رضي الله عنه: ليكتب شروط الصلح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اكتب "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ")) فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله: ((اكتب باسمك اللهم)), فكتبها. (وهنا أعطى النبي صلى الله عليه وسلم بحـا لـسـهـيلـ بنـ عـمـروـ بـتـنـفـيـذـ ماـ طـلـبـهـ وـلـمـ يـتـأـثـرـ (المعنى)).

ثم قال: ((اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو)), فاعتراض سهيل وقال: لو شهدت أنك رسول الله لم أُفـاتـكـ،ـ ولكنـ اـكـتـبـ اـسـمـكـ وـاسـمـ أـبـيكـ.

فقال رسول الله: ((اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو))، (وهنا نفس الموضوع في إعطاء ربح للمفاوض مقابل أرباح أكبر دون الضرار بجوهر القضية); ففي هذه المرحلة خطا النبي صلى الله عليه وسلم الخطوة المهمة في عملية التفاوض؛ بأنه تقبل كل ما كان يقوله سهيل بن عمرو وأن يعيد صياغته؛ حيث تصرف الرسول كشريك وليس كخصم، حين لاحظَ الرسول صلى الله عليه وسلم تمسكَ سهيل بن عمرو بموقفه في التفاوض مع النبي؛ فقد تنازل الرسول صلى الله عليه وسلم عن جزئيات ولم يتنازل عن الأهداف الإستراتيجية. وماذا لو لم يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، وكتب بدلاً عنها: (باسمك اللهم)؟ وماذا لو كتب: محمد بن عبدالله، ولم يكتب: محمد رسول الله؟

وكان صلح الحديبية يتضمن من البنود ما يأتي:

- 1 - يعود النبي محمد صلى الله عليه وسلم وال المسلمين هذا العام إلى المدينة، ولا يدخلون مكة لأداء العمرة، ولهم أن يعودوا في العام القادم، وأن يدخلوا مكة بدون سلاح.
- 2 - الإعلان عن انتهاء حالة الحرب، وإعلان هدنة بين المسلمين وقريش، ويكون أمد هذه الهدنة عشر سنين.
- 3 - يتزعم النبي محمد صلى الله عليه وسلم برد كل من يسلم من أهل مكة، وهاجر إلى المدينة بعد هذا الاتفاق.
- 4 - لا تلتزم قريش برد من يأتياها مرتداً عن الإسلام، فلا ترجعه للمسلمين في المدينة المنورة.
- 5 - للقبائل العربية في جزيرة العرب وغيرها أن تدخل في دين محمد صلى الله عليه وسلم وعهده، أو إذا أرادت أن تدخل في حلف وعهد مع قريش فلها ذلك.

وهذا هو ملخص لبند صلح الحديبية، أما نص الاتفاقية فقد كان:

"باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكتف بعضهم عن بعض؛ على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً، أو يبغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه. وأن بيننا عيبة محفوظة، وأنه لا إسلام ولا إغلال [1]، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخـلـهـ،ـ ومنـ أـحـبـ أنـ يـدـخـلـ فيـ عـقـدـ قـرـيـشـ وـعـهـدـهـ دـخـلـ فـيـهـ.ـ وأنـكـ تـرـجـعـ عـنـ عـاـمـكـ هـذـاـ،ـ فـلـأـتـدـخـلـ عـلـيـنـاـ مـكـةـ،ـ وأنـهـ إـذـاـ كـانـ عـاـمـ قـاـبـلـ خـرـجـنـاـ عـنـكـ،ـ فـدـخـلـتـهـ بـأـصـحـابـكـ فـأـقـمـتـ بـهـاـ ثـلـاثـاـ،ـ مـعـكـ سـلاـحـ الرـاكـبـ؛ـ السـيـوـفـ فـيـ الـقـرـبـ،ـ وـلـأـتـدـخـلـهـ بـغـيـرـهـاـ،ـ وـلـيـأـتـهـ أـنـ الـهـدـيـ ماـ جـئـنـاهـ وـمـحـلـهـ،ـ فـلـأـتـقـدـمـهـ عـلـيـنـاـ،ـ أـشـهـدـهـ عـلـىـ الـصـلـحـ رـجـالـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ،ـ وـرـجـالـ مـنـ قـرـيـشـ".ـ

وقد بدأ في بداية الأمر بعض الصحابة رضي الله عنهم أن الاتفاقية فيها إذلال وإجحاف بال المسلمين، أو أنهم يعطون الدينية في

دينهم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم - على غير عادته - لم يُشاورهم فيها؛ لهذا كانت هناك مُفاوضاتٌ بين الفريق الواحد؛ لِقناع بعضهم البعض بوجهة نظره، وكان أشدّهم تأثراً بنتيجة المفاوضات عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فقد ذهب إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

قال: بلى.

قال: أولئك المسلمين؟

قال: بلى.

قال: أولئك المشركين؟

قال: بلى.

قال عمر: فعلام نعطي الدنيا في ديننا.

قال أبو بكر: يا عمر، الزَّمْ غرَزَهُ (الزم أمره)؛ فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ألسْتَ بِرَسُولِ اللهِ؟

قال: بلى.

قال: أولئك المسلمين؟

قال: بلى.

قال: أولئك المشركين؟

قال: بلى.

قال فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟

قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني.

فانصاع عمر رضي الله عنه، وانصاع مَنْ كان في نفسه شيءٌ من الصحابة وأذعنوا، فحقق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم نجاحين تفاؤل ضيّفين؛ مع الخصم، ومع أصحابه.

---

[1] إسلام؛ أي: سرقة خفية، إغلال؛ أي: خيانة.

المصادر: